القصص

الى خراسان

للاستاذ الرحالة محمد ثابت

رحلة قام بها الاستاذ عام ١٩٣٣ الى تركية والعراق وايران وافغانستان

اعتزمت القيام من « طهران » الى أرض « خراسان » حيث مقر الامام الرضى أحد أئمة الشيعة ، وضريحه فى « مشهد » ثانية مدن فارس ، وأولى البلاد المقدسة . . تبعد عن طهران مسافة نائية هى فوق مائة وستين فرسخا . والفرسخ - وهو وحدة القياس عندهم - نحو ستة كيلو مترات ، فالمسافة كلها نحو الف كيلو متر أو تزيد . كان القوم يقطعونها على متون الابل والبغال والحمير قبيل الحرب الكبرى . فيما بين اربعين يوما وستين ، وهى اليوم بالسيارات بين يومين وثلاثة . اخذت مكانا أماميا فى سيارة كبيرة من ذوات العجل المزدوج برفقة ركب من الحجاج يناهز الخمسة والعشرين بين رجال ونساء ، وشيوخ وشبان ، وبدأنا السير ليلا ، وكلهم اعان صادق لا يبتغون من وراء متاعبهم تلك ونصبهم هذا الا زيارة قبر الامام الرضى ومعهم زادهم ، أما انا فكنت أعتمد على المحاط وما فيها من وسائل ساذجة للنوم والطعام ، آونة وأخرى كان يصيح القوم قائلين : (لاهم سل آل مهمد آل مهماد) واخذنا نمر بالمحاط التى يسميها القوم مسافرخانات أو « كرفان سراى » وهناك نجد امكنة تحكى الفنادق بها حجرات فقيرة الاثاث ، وغذاء بسيط كنا نتزود منه ونأخذ قسطنا من الراحة ، ثم نستأنف السير ولم تكن تقوى القوم لتنسيهم ملاذهم ، فقد كان الفريق الاكبر منهم من الغلايين لتدخين الافيون فيتجولون حانا من المكان ويمر الغليون عليهم جميعا ، وكان فى جوارى الى جانب السائق احد علماء كربلاء بعمامته السوداء الضخمة ، ولحيته المسترسلة ، وسحنته الناحلة ، وكان يتيه على الاخرين بعلمه وبانه من سلالة هاشمية ومن نسل العلم والعلماء ، ولأولئك على الناس حق العطاء ويسمونه هناك (حق الخمس) ، يقصدون الاغنياء كلما أعوزهم المال ليأخذوا منهم حقهم هذا لانهم من السادة سلالة الرسول

جد السائق فى السير على ضوء القمر وقبس مصباحه ، فكانه نظره فما نشعر إلا والسيارة تنحدر بنا عن الطريق ، وتنزل هوة من دونها واد سحيق ، فكادت تنخلع لرجاتها قلوبنا ، وصاح الجميع ، وارتطم هذا بذاك ، وذاك بجانب من السيارة ، ثم كانت صدمة عنيفة وفرقعة أصمت آذاننا ، وإذا هى صخرة كبيرة ناتئة فى منحدر الوادى توقف السيارة قبل أن تنقلب ، وقد أصيب من الركاب كثير ، ونالنى من ذلك شج بين العينين سال منه الدم سيلا وصدمة شديدة فى الركبة اليمنى أحدثت بها كسراً لا أزال أعانيه ، فقفزت من السيارة ونمت على الصخر تائها حتى الصباح فرأيت العجلة قد كسرت من أساسها ، ولولا لطف الله لكنا اليوم فى عالم غير الذى نحن فيه . أمضينا يوما كاملا فى تلك البرية المقفرة ولم يكن لدى زاد ولا قوت ، فتبلغت بكسرة أعارنيها أحد الحجاج حتى عاد السائق ومعه بديل عما كسر ، وكان قد رجع إلى طهران ثم عاد إلينا وأصلح ما أفسدت غفلته ، واستأنفنا سيرنا شاكرين الله ان أنجانا من خطر الموت فى تلك الناحية النائية وكم من سيارة خانها الحظ العاثر فهوت وهلك من ركابها الكثير فى تلك الطرق الوعرة . ولقد عزا القوم سلامتنا إلى رضى الامام عنا . وما كدنا نسير بعيداً حتى وقفت السيارة فجأة وتبين أن البنزين قد نفد ، ولم يكن لدينا منه شىء ، فلبثنا مكاننا حيارى ساخطين جزعين أربع ساعات حتى مرت بنا سيارة أخرى أعارتنا بعض البنزين . والسيارات الكبيرة تمر تباعا ذهابا ورجعة فى كثرة هائلة ، تحمل جماهير الحجاج ، ويقولون بان هذا الخط على وعورته اكثر الخطوط حركة فى نقل المسافرين لأن « مشهد » خير لديهم من مكة المكرمة تغنيهم عن حج بيت الله الحرام فى زعمهم فترى الغانى منهم والفقير المدقع

يدخر أجر السفر ليصل إليها ويود لو يموت بها ليدفن فى أرضها الطاهرة

لبثنا نسير وسط الربى وصعدنا منها ماهو بالغ الوعورة فى طرق إلتوائها متعاقبة ، وكلها جدبة عريت عن النبت الا فى بعض بطون من الأودية حيث كنا نرى سيلا من الماء يتلوى وتقوم القرى على جوانبه بأبنيتها الوطيئة من اللبن والطين ، وبعد يوم ونصف دخلنا سهولا غالبها صحراوى وتلك بداءة ارض خراسان

استوقفت السيارة قليلا فى قرية « نيسابور » مثوى رفات (عمر الخيام) الذى عاش فى الربع الاخير من القرن الحادى عشر وأوصى ان يدفن فى بقعة تظلها الاشجار ويكسوها ورقها الذابل مرتين فى كل عام . زرت مقبرته وسط الحقول تظلها حقا أدواح عالية قديمة ، ويزورها من الاجانب خلق كثير لانه قد خلد له ذكرا بما كتب فى رباعياته التى ترجمها الناس الى جميع اللغات ، ولقد أبى عليه علماء الدين تشييد مدفنه لاتهامهم إياه بالزندقة لانه كان إباحيا فى شعره

عادت الربى فتسلقناها وأشرفنا على « مشهد » وهى فى حجر الجبال بعد أن لبثنا فى الطريق ثلاثة ايام وأربع ليال كاملات قاسينا خلالها كثيرا . هنا وقف السائق وبه القوم أن هاهى مشهد فارقبوها تبركا فأخذوا يحاولون رؤية القبة الشريفة وسط الضباب والدخان المنبث وكل من لمح منها قبسا قرأ آيات التبريك وعمد الى قطع الاحجار يجمعها فى كومة ، ثم أقبل على السائق يهبه من أنعامه ماتيسر

دخلنا مشهد تحوطها المزارع والبساتين ثم أخذنا نخترق طرقا فسيحة يحفها الشجر وتقوم عليها المبانى الحديثة الوطيئة ، وقد كانت من قبل أزقة محتقنة كسائر بلاد فارس ، لكن يد الاصلاح تناولتها اليوم على نحو ما فعلت فى طهران ، وقد استرعى نظرى بناء القنصلية البريطانية بعظيم امتداده وهو أثر من آثار النفوذ الانجليزى الذى كان يسيطر على البلاد بجانب النفوذ الروسى . حتى حدث مرة ان حاول بعض الناس ان يعلو ببناء بيته الملاصق لتلك الدار فمنعه القنصل إذ لايجوز كشف حرمة الدار الانجليزية أما اليوم فلا يكاد يكون لذاك النفوذ ظل أبدا .

قصدت زيارة ضريح الامام الرضى ، الذى بدت لنا قبته الذهبية البراقة من أميال ، وإذا المسجد والحرم فاخران الى حد كبير . مداخلهما عدة ، الباب تلو أخيه فى زخرف جذاب وفرش بديع بالقيشانى والبلور والمرمر والرخام ، وأمام كل واجهة رئيسية بهو مربع تحفه الحجرات المزركشة أقيمت لطلاب العلم فى طابقين وتتوسطه قناة الماء يغترف منها الجميع للشرب والغسل وتنظيف الملابس والاحذية ومآرب أخرى ، والباب الرئيسى للضريح مكسو كله بالذهب الخالص

منظر عام للحرم الشريف فى مشهد كعبة الشيعة من الفرس

فى فجوات وتعاريج جذابة ، وفوق الضريح قبة مكسوة بالذهب الخالص وللمسجد مئذنتان دقيقتان ، عليهما غشاء من ذهب . أما عن العالم المتراص كالموج المرتطم هنا وهناك فحدث فى دهشة فائقة . كنت أسير ولا أكاد أشق لى طريقا بينهم . ومنهم المنقف أنيق الهندام والمتسول البائس فى الخرق البالية والاقذار التى ينبعث منها مكروب المرض فيوشك أن يخترق أجسادنا . هذا إلى العلماء فى عباءاتهم وعمائمهم السوداء للشرفاء منهم ، والبيضاء لغير الشرفاء يخضبون لحاهم بالحناء جميعا ، ومن زوار الاجانب خلق كثير : عراقيون وهنود وأفغان ومن كافة العالم الاسلامى ، وعلى الجدران يرتمى الكثيرون فى خمول زائد وجلهم ممن أضناهم المرض وشوه البؤس أجسادهم ، ويتوسط أحد الأفنية سيل مذهب فى داخله نافورة حولها السلاسل تحمل القماقم للحنفيين ويشرف عليهم كهل توقد حوله الشموع صباح مساء . وبين آونة وأخرى يمد مغرفة يحرك بها الماء والسعيد من استطاع أن يتذوق هذا الماء الطاهر . أخيرا دخلت الضريح الفضى وإذا المدفن وسط شباك الفضة والذهب ترصعه الجواهر الثمينة وقد اتمت تطوا فى حوله فى ثلث ساعة كدت اختنق خلالها من كثرة الزحام وهنا رأيت عجبا : نواح وصياح ولطم وتقبيل واستلقاء على الارض ولمس للاعتاب بالخدود وما الى ذلك مما تقشعر له الأبدان . هنا أسرع شيخ يطوف بى وناولنى أدعية مطبوعة يجب أن أقرأها وأركع أسجد وأقبل ، فأسرعت بالتخلص

منه بفضل زميل فارسي عرفته ، فخاطب المطوف قائلا بأتى عالم قارى، خير بكل أولئك ، وقد علمت بعد أنى لو رفضت الاذعان للامر وحدى لظن أنى ملحد ولكان ما لا تحمد عقباه ، وبجانب الضريح قبر هرون الرشيد غير أنه منبوذ فى ناحية غير ظاهرة وقد وضعوه

فناء الرئيسى للحرم الشريف يتوسطه مجرى الماء بجانبه السبيل المقدس

بحيث يلمسه الزائرون بأدبارهم عندما يطوفون حول الرضى وذلك احتقارا لشأنه وكثير منهم يلعنه بعد الزيارة ويركله برجله ووجهه مقابل للامام ويقول (لعن الله المأمون وأباه) وذلك لأنه سنى أولا ، ثم لأنه والد المأمون الذى اتهم بدس السم للامام ؛ وقد سافر الرشيد الى هنالك فى حملة ضد احد الحكام الذين مالأوا بنى أمية ، فوافته منيته هناك فأوصى بأن يدفن فى هذا المكان الذى أقام عليه الاسكندر المقدونى علما ، وتنبأ بأنه سيكون مدفن رجل عظيم ، ولما جاء المأمون ولى الرضى حاكما على تلك البلاد من قبله ، ولما عاد الى بغداد وتم له الامر دس للرجل فمات ودفن الى جوار الرشيد . خرجت الى الفناء واذا فى كل ركن من أركانه عالم يرتقى منبرا وحوله خلق كثير جلوس على الأرض فى وجوم وشبه ذهول وهو يقص عليهم أنباء الامامين على والحسين وجميعهم يبكون ، وكلما اشار فى قوله الى الفاجعة صاحوا ولطموا جباههم وخدودهم فى فرقعة مؤلمة ومنهم الطفل والمراهق والسيدة والعجوز والكهل الغانى والمتفقه والامى الجاهل ، وذلك التبشير يظل سحابة اليوم فى جميع أركان الأفنية . ولما أوشك الغروب سمعت من شرفة الباب الأوسط طبولا تقرع فى نقرات مثلثة ثم أعقبها صياح وتلا ذلك نفخات فى أبواق طويلة مزعجة ، وظل هذا حتى غربت الشمس فكأنهم يودعونها كما يفعل المجوس بذلك الذى يدخل الرهبة ويلقى الرعب فى القلوب . قلت فى نفسى أهكذا يلعب رؤساء الدين بأذهان البسطاء لابتغاء مرضاة الله بل لملء جيوبهم هم وذراريهم الذين لا يحصيهم عد ؟ تأخر معيب وتدهور يعطى الاجنبى عن البلاد أسوأ الفكر ؛ وحتى تقضى حكمة الشاه على كل أولئك ، سيظل هذا حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد

مثل من الجمال الفارسى

والذى شجع الفرس على اتخاذ مشهد كعبة مقدسة ، الشاه عباس أكبر ملوك الصفويين هناك وكان عصره ثالث العصور الذهبية فى فارس . صرف قومه عن زيارة مكة لكراهتهم للعرب ولكى يوفر على قومه ما كانوا ينفقون من مال طائل فى بلاد يكرهونها : فاتخذ مشهد كعبة وجه الشعب اليها ولكى يزيدها قدسية حج اليها بنفسه ماشيا على قدميه مسافات تفوق ألف كيلو متر ومائتين فتحول الناس اليها ، ويندر من يزور الحجاز منهم اليوم وهم يحترمون كلمة (مشهدى) عن كلمة (حجى) لأن من زار مشهد لا شك أكثر احتراما وطهارة ممن زار مكة فى زعمهم !

دايون ابى شادى الجديد

يطلب من المكاتب الشهيرة ومن ادارة مجلة (أبولو) بالسيدة زينب بالقاهرة . ثمن النسخة مائة مليم خلاف البريد .

حبيشـــه

— ١ —

عذراء فاتنة ، ناطقة الملامح ، تبسم عن ثغر نقى مؤشر . فوهاء ولكن جمالها فى ذلك الفوه . حوراء ، تتراءى نفسها اللطيفة رقصة فى عينيها ، ما تلقى عليها نظرة الا ثبتت فى قلبك بصورتها المرحة ، وبسمتها الوادعة ، مأنقة فى ملبسها من غير تبرج ، متألقة فى خفرها بلا تكلف ،

وكانت فتاتنا فى ريعان شبابها ، بدأ عودها يثمر ، وأخذت حركتها تنتظم ، ونظرتها تستقر ونغمتها تلين . قضت أيام طفولتها ترعى البهم ، وكانت محبوبة بين لداتها وصواحبها ، مشهورة المواهب بينهم ، يتهافتون على صحبتها ويجمعون على مودتها ، ويقنعون منها بكلمة طيبة أو بسمة عذبة

وكان لابد للطفولة من نهاية ، وقعدت فى بيتها تاركة رعيتها الصغار من إخوتها وابتدأت حياة جديدة

— ٢ —

أنبأت (عبد الله) أمه برغبتها فى زيارة بيت من حيها ، وكان غلاما يفعه ، فاستبان وجهتها واذا به بيت (حبيشه) رفيقة صباه فوثبت صورتها توا إلى مخيلته ، وبدا وجهها الطلق يناديه وصوتها العذب يناغيه . فدعاها لأن تتريث حتى يمضى معها ، ليكسر عنها كلاب الحى الضارية وأكبرت الأم شهامة فتاها ، وحسنها عاطفة حتى لامومتها . فرجل جمته ، وطيب ثيابه ، ومشى يختال كالطاووس ، ويتبرج كالعروس ، ومن مثله سيقدم على وجه صبيح طالما انتظر لحظات رؤيته ؟ والآن قد أمكنته الفرصة . نعم سيراها ، وفى بيتها ، وتحت رقبة أهلها ، ويشبع نفسه من حسنها فيروى قفره ، ويبل صداه .

دخل عليها ، وشد على يديها ، ونظر نظرة فيها ، فاذا هى غيرها بالأمس ، جمال يتولد ومحاسن لا تنفد .

تحمل الفتى بسهامها ، وخرج من دارها ، تحدثه أمه فيغمغم ، يهيم فى مهامه فكره ، قد أطرق برأسه وشرق بنفسه . وبعد حين زفر كالمهجور ، وانتظمت أنفاسه كلمات خافتة خاشعة .

وما أدرى ، بلى إنى لأدرى أصوب القطر أحسن أم حبيش ؟
حبيشـــة والذى خلق الهدايا وما عن بعدها للصب عيش

سمعته أمه ، وفطنت لدائه ، ولكنها تغافلت عن همه ، ومشيا يلفهما الصمت ، حتى اعترضهما ظبي يعطو الى سلة فوق راية ، رآه مقدودا كتمثال ، ولمح فى جيد وعينه ليلاه ، فانطلق لسانه من عقاله ، وجهر بصوته :

ياأمتا ! أخبرينى غير كاذبة وما يريد مسول الحق بالكذب ؟
أتلك أحسن أم ظبي برابية ؟ لا ، بل حبيشة فى ظبى وفى أرب

وماذا تخبره أمه ؟ صمت عليه ذنوبا من الملامة ، وقرعته على خوره واستخذائه ، وحذرته أن يتمادى فى غوايته ، ثم فكرت فى صرف هواه الى بنت اختها ، التى عمدت تزينها ، وتبدع فى تجميلها علها تقع من قلبه موقعا ، ولكن حب حبيشة كان قد واتى والنفس فارغة فاستحكم ، وان غابت عنه تركت ربعه خاويا ، وقلبه واريا

إذا غبت عنى حبيشة مرة من الدهر لم أملك عزاء ولا صبرا
كأن الحشى حر السعير ، يحثه وقود الغضى والقلب مستعجرا

وكان عبد الله ككل الشعراء ، وضع قلبه على طرف لسانه . أحب فشبب ، ولذله ذلك ، فلقى أهلها منه كل بلاء ، وعملوا كيدهم لصرفها عنه ، فرادوها على أن تعده موعدا ، وفيه تصارحه بزهادتها فيه ، وكراهتها إياه ، وهم عن جنب منها يسمعون . فلما أقبل اختطر اللؤلؤ متهالكا ، والتفتت حيث أهلها كامنون ، فقطن لنظرتها ، ورجع من حيث أتى ، وقال :

لو قلت ماقالوا لزدت جوى بكم على أنه لم يبق ستر ولا صبر
ولم يك حبى عن نوال بذله فيسلبنى عنه التجهم والهجر
وما انسرم الاشياء لا أنسى دمعها ونظرتها حتى يغيبنى القبر

وظل على حبه ، يقنع باللمحة ، ويتعلل بالخيال حتى وقعت الواقعة

— ٣ —

وجه النبى صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد فتح مكة الى ماحولها من القبائل يدعوهم . الى الله عز وجل فنزل ببنى جذيمة